# العادات والتقاليد

## اصلها — تأثيرها — اقسامها — تطورها — اصلاحها

بقلم احمد خاطر

العادات والتقاليد كلمتان يشدّ احداهما الى الاخرى رابط معنوي يكاد يجعلهما في حكم الكلمة الواحدة ، بحيث يصح القول ان كل عادة تقليد وكل تقليد عادة .

ولعلّ في هذا ما يبرر اتخاذهما عنوانًا لموضوع واحد تعالجان فيه معًا معالجة كثيرًا ما يتسامح فيها بنسبة ما يقال عن هذه الى ما يقال عن تلك ، وفي تعريف كل منهما ، وما تدلان عليه من معنيين متقاربين متداخلين بيانٌ لا زيادة فيه لمستزيد .

### ما هي العادة ؟

فالعادة لفظة مشتقة من العود . يقال عاد فلان الى كذا اي صار اليه ، ورجع ، وارتد بعد ترك .

وقد يراد بالعود مطلق الصيرورة ، فيقال عاده اي انتابه وبدأه ثانيـاً وصيّره عادةً .

والعادة هي الديدن والدأب ، سُميت كذلك لان صاحبها يعاودها اي يرجع اليها مرةً بعد اخرى .

ومنهم من عرفها باستمرار الناس على حكم المعقول ، وعادوا اليه تكرارًا ، ويراد بها هنا ما استقرّ في النفوس من الامور المتكررة المقبولة عند الطبائع السليمة .

ويقول العامة من اللبنانيين : العادة طبيعة خامسة ؛ ذلك لان الطبائع في

عرف الاقدمين اربع : « الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة » وقد نسبوا اليها التحكم في الاجسام تحكماً لا غنى عنه ، لان فيه قوامها ، وجعلوا العادة خامسها بمعنى اشتمالها على مثل ذلك التحكم .

اما الافرنج فيقولون : « العادة طبيعة اخرى » والكلمة اساساً لارسطو، وهي على ما فيها من مباينة للكلمة الاولى في الظاهر ، تكاد تلتقي واياها معنوياً على صعيد واحد ، لان الطبيعة هي الكون وما وضع له من نظم لا يحيدُ عنها ، فاذا قيل : « ان العادة طبيعة اخرى » كان المعنى انها كون اخر يتحكم في الاجسام ، وهو ما جاء في العبارة الاولى نفسه سواء بسواء .

العادة في امثال العامة :

ومن امثال العامة في العادة ، وهي فلسفتهم الشعبية الخاصة المعربة عن اسلوبهم في النظر الى الامور ، قولهم : «عاده في البدن لا يغيرها الا الكفن — كل شي عاده حتى العباده — العاده بتقطع خرزة البير — كل بلاد ولها زيّ وكل شجرة ولها فيّ — من غيّر عادته بتقل سعادته — كل عمرك يا زبيبه في قفاكِ عود — كل عمره هـا الحدّ معوّد على ها اللطمه — اللي معوّد على خبزاتك كلها شافك بيهزّ زناره — يا معوّد لا تبالي ... — عوّد جسمك على ثوبين ، ولا تعوّد بطنك على رغيفين ... » وما الى ذلك من اقوال شعبية تدل على تحكم العادة تحكماً يصعب الافلات منه

العادة في اقوال الشعراء :

وللشعراء في العادة ابيات متناقلة نذكر منها :

ان للعادة سرّاً طيّه ضرٌّ ونفعُ
فبها للبعض خفضٌ وبها للبعض رفعُ
وهي بالتكرار خلقٌ زانه بالفضل وضعُ
فلذا الامثالُ قالتْ : «عادة الانسان طبعُ»

وقال آخر :

عوّد لسانك قولَ الصدقِ تحظَ بهِ ان اللسانَ لما عوّدتَ معتادُ
موكّلٌ بتقاضي ما سننتَ له في الخيرِ والشرِ فانظرْ كيفَ ترتادُ

وقال غيره :

عادة الانسانِ سلطانٌ عـزّ مطلقُ الحكمِ على الطبعِ اعتلى
وقـواه كجنودٍ بـذلٍ خدمته وبه نـال العلى

وقال الفرزدق :

وانتَ امرؤٌ عُوِّدتَ للمجد عادة وهـل فاعلٌ الا بما يتعوّد

وقال المتنبي :

لكلِ امرئٍ من دهره ما تعوّدا وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العدا

تعريف التقليد :

اما التقليد فمن قلّد المرأةَ قلادةً اي جعلهـا في عنقها ، وهي متابعة الانسان غيره فيما يقول وما يفعل من غير نظر وتأمل في الدليل ، كأن هذا التابع جعل قول الآخرين وفعلهم قلادةً في عنقه وأحكم ربطها فيها احكاماً بليغاً حتى تكاد لا تفارقهُ .

وفي تعريف آخر حُدّد التقليد بكونه كل ما يقلد فيه المرء مَن تقدّموه جيلًا بعد جيل ، في شؤونٍ اتصلت اليه منهم بالمثل او الحديث خلوًا من اية شريعة مكتوبة او قانون مسطور .

والتقليد عند النصارى واليهود هو ما تسلّموه وتداولوه من عقائدهم وشعائر دينهم ، خلفاً عن سلف ، جيلًا بعد جيل ، مما لم يدوّن في كتبهم المنزلة .

وفي تداول التقليد سواء أكان قولًا ام فعلًا عودٌ اليه ، ومن هنا نشأ ما يربط العادة بالتقليد ويسهل على الباحث جمعها معاً بدون خلاف .

والتقليد عند العامة هو تشبه الاصاغر بالاكابر على غير مقدرة واهلية ، ويضربون على ذلك مثلًا الغراب الذي راح يقلد مشية الحجل ، فلم يتقنها ونسي مشيته الخاصة فساءت حاله ، وهم يرمون في ذلك الى توقع مثل هذا المصير لكل ضعيفٍ يحاول التشبه بقوي ، في حين لا شيء لديه من وسائله ومقدراته .

وقد نظم احد الشعراء قصة محاولة الغراب تلك في ابيات شعرية ذهبت في شهرتها مذهب المثل وهي هذه :

ان الغرابَ وكان يمشي مشيةً فيما مضى من سالف الاجيالِ
حسد القطاةَ ورامَ يمشي مشيها فاصابهُ ضربٌ من العقالِ
فاضلَّ مشيتهُ واخطأ مشيها فلذاك سمّوه ابا مرقالِ

الملكات والاخلاق :

ويتفرّع من العادات والتقاليد الملكات والاخلاق ، فكلُّ عادة يطول الاستمرار عليها تسمى « ملكة » ، لانها تتملك الارادة بما يحدثه تكرارها في الدماغ من اثر لا يسهل محوه .

والملكة صفة راسخة في النفس تكسبها هيئة خاصة بسبب فعل من الافعال ، ويقال لتلك الهيئة حالة نفسية ما دامت عرضة للزوال ، فاذا تكررت ومارستها النفس حتى ترتسخ فيها اصبحت ملكةً ، وبكلمة اخرى اصبحت عادة وخلقاً . والخلق من معانيه العادة والسجية والطبع ، وهو في عرف العلماء ملكة تصدر بها الافعال بسهولةٍ اي دون اي اجهاد او اعمال رويّة .

ويراد بعلم الاخلاق علمُ حسنِ السلوك

تأثير العادات والتقاليد :

وللعادات والتقاليد تأثير كبير وفاعلية ممتازة في حياة الامم والافراد ، لانها تقوّي في المرء شعوره بما يربطه بوطنهِ وقومهِ وبيئتهِ من علاقات ، وتنبّه احساسهُ الى واجبهِ في التعاون مع اخوانه على ما فيه خيره ومصلحته ، وتدفع المجتمع الى التنظيم والتناسق في الحركة والاتجاه والاوضاع ليمشي الجميع على نمطٍ واحد في التفكير والعمل ، ويسيروا الى اهدافهم على شكل ثابت لا يطرأ عليه تبديل اقتداء باسلافهم ، مما يربط ماضيهم بمستقبلهم ويحملهم على الاتعاظ بما مرّ بهم ، ليقتبسوا منه ما يحتاجون اليه في غدهم تحسيناً لحالهم ، واصلاحاً لمعيشتهم ، وعلى ذلك اذا ترقت العادات وتجمّلت كانت من اضمن الذرائع للرقي والتقدم .

اقسام العادة :

والعادة اقسام يتميز بعضها عن بعض بما يقوم بينها من تباين في المصدر والاثر والغاية ، ومن علماء النفس من بالغوا في تعداد هذه الاقسام ، والمأثور قسمتها الى :

١ً – بسيطة ومركبة
٢ً – ايجابية وسلبية
٣ً – جسمية ونفسية
٤ً – فردية ودينية واجتماعية
٥ً – مزاجية واكتسابية

العادات البسيطة والمركبة :

تكون العادة بسيطة فيما اذا حصلت بحركة واحدة لا يرافقها غيرها ، فاذا تعددت الحركات وتباينت تراكباً اصبحت مركبة . مثال ذلك : اعتياد سائق السيارة سوقها فان عمله يستدعي عدة حركات تتم معاً ، من مثل تحريكه المقود بيده ، وضغطه على اللجام برجله ، ونظاره الى الطريق بعينه ، ومحدثته الى الركاب بلسانه ، فان كل حركة من هذه الحركات تعد عند التحليل عادة بسيطة او مفردة ، فاذا ضمت كلها معاً وجمع بعضها الى بعض اصبحت مركبة وهي المقصودة هنا . واكثر العادات هي من هذا النوع المركب لان المرء يكاد لا يأتي واحدة منها الا وقد اشترك فيها غير واحدة من قواه العقلية والجسمية بحركات كثيرة ، وعلى وجوه متباينة ، تجعلها مصداقاً للتركيب والتأليف .

يمثل على ذلك دورة الجندي على قدميه ، فان حركته على بساطتها تبدو عند التحليل مركبة من عدة حركات ، تعاونت القوى العقلية والجسمية على اقامتها . ومن اخص القوى الجسمية الرجلان ، فان كلًا منهما عمل على حدة في اول الامر ، وبعد ذلك اشتركا معاً ، ويقاس على هذا غيره من اعمالنا ، وهو كثير لا يمكن حصره .

العادات الايجابية والسلبية :

تدعى عادة ايجابية تلك التي تستدعي منا عملاً ذاتياً يصدر عن قوانا الداخلية ، نحو ما نباشره كل يوم من اعمالنا المنزلية والمهنية والفنية ، وهو كثير نكتفي بالاشارة الى بعضه على سبيل المثال :

من ذلك اعتيادنا الاغتسال عند صبيحة كل يوم ، وارتداء الملابس ، وتناول طعام الافطار ، والتحول الى مباشرة اعمالنا ايًا كان نوعها .

اما السلبية فتلك التي لا تستدعي جهداً ذاتياً ولا حركة شخصية داخلية، ولكنها تتم ببعض تأثرات خارجية ، مثاله : ان نتعود العيش في المناطق الحارة او الباردة ، او نألف نوعاً خاصاً من الاطعمة الحرّيفة او السامة ، او ندمن تناول الكحول حتى القوية منها كالوسكي والفودكا ، او المنبهات كالتبغ والكوكايين ، او نطيل الاقامة في بيئة اجتماعية خاصة كالمستشفيات ومصانع العقاقير الطبية ، ونعتاد تحمل ما فيها من دواعي المضايقة والازعاج .

العادات الجسمية والنفسية :

العادة الجسمية هي مـا كانت متعلقة بالجسم : كالطعام ، والشراب ، واللباس ، والنوم ، والتدخين ، وما لكل انسان من اسلوب خاص في السير والجلوس والنهوض والتحدث ، وما يرافق ذلك من اشارات وحركات .

والعادة النفسية ما كانت متصلة بقوى النفس : كالصدق ، والكذب ، والامانة ، والخيانة ، والحب ، والبغض ، وغير ذلك من العادات الصادرة عن القوى العقلية بالتكرار والتمرن، وهي تقتضي من اجهاد العقل ما تقتضيه من حركات الجسم ، كتحصيل مختلف انواع العلوم والفنون ومزاولتها .

وللعقائد الدينية علاقتها ايضاً بالنفس ولها اثرها المحسوس في اعمال المرء الباطنة والظاهرة الروحية والمادية الخاصة به وحده ، او العائدة الى علاقاته مع غيره .

وهذان النوعان من العادة يستطاع توحيدهما على اعتبار ان الحركات الجسمية وجدت في الانسان خاضعة للقوى النفسية ، وان الله وهبنا الارادة الحرة لجاماً

نكبح به جماح اعمالنا ، ونعوّد انفسنا الخضوع للعقل الواجب ان يكون رائدًا لنا في كل امورنا .

العادة الفردية والدينية والاجتماعية :

وتدعى العادة فردية فيما اذا اختصت بفردٍ وكانت دليل امياله ومظهر طباعه ، وهذه تختلف باختلاف حالة كل انسان وبيئته وطرق اكتسابه ومكانته في دنياه ، مثال ذلك : ما يروى من غرائب العادات في بعض المشاهير من الرجال. منه ما قيل عن هايدن المؤلف الالماني انه لم يكن يقدر على الكتابة الا اذا دخل غرفته ولبس احسن ثيابه وكانت ريشته جميلة وغرفته متقنة النظام تسودها النظافة ، وعن فوكيير المصور الفرنسي انه لم يكن يقوى على اتقان التصوير الا اذا تقلّد اسلحته وتمنطق بسيفه على عادة الاشراف في ايامه ، وعن المشرع الشهير كوجاس انه لم يكن يحسن الكتابة الا اذا تمدّد منبطحاً على بطنه وانتشرت كتبه واوراقه ما حوله .

والعادة الدينية هي ما تبحث بما له علاقة بالدين وشؤونه على اختلافها ، اخص ذلك ما تعلق باحتفالات الاعياد وتذكارات المواسم الدينية عند كل طائفة مع ما فيها من رموز ومعانٍ .

والعادة الاجتماعية هي ما استعملها المجتمع في امة او اقليم او في العصور عامة ، مما اتفق عليه الناس وألفوه اما بدافع المصلحة او العقيدة الانسانية او ظروف الزمان والمكان ، واكثر ما يجري ذلك بطريقة المتابعة لمن تقدمونا واورثونا عاداتهم فتلقفناها عنهم في الغالب دون فحص او تروّ . مثال ذلك : ما عند كل امة من عادات وتقاليد يسلّم افرادها بانها من اختصاصاتهم ، ولو كانوا لا يستعملونها هم بانفسهم ، من هذا النوع ما عندنا نحن معشر اللبنانيين من عادات اطلاق النار عراضة في الاعياد والاعراس والمآتم ، وما الفناه من الطرق في رقص «الدبكة» ، و«شيل القبة» ، واستقبال الضيوف في اية ساعة جاؤوا ، والالحاح عليهم بمشاركتنا في الاكل والشرب والاكثار منهما ولو تضرروا ، الى ما هناك من قراءة القصص ، وحكاية الحكايات في السهرات ،

ورواية الخبر الحي والحديث ، و[illegible] من الاقاصيص .

ومن العادات الاجتماعية ما يتبدل بتبدل الظروف والمحيط والحالة ، مثاله ذلك : ان نلبس الملابس الصوفية والاكسية المبطنة الثقيلة ، ونتناول المشروبات الكحولية المدفئة في المناطق الشديدة البرد ، ونرتدي الغلالات البيضاء الرقيقة ، ونشرب المثلجات والمبردات في المناطق الشديدة الحرّ .

ومنها ما اعتاده سكان المناطق الاوربية التي يتوافر نزول الثلج فيها من جعل سطوح منازلهم على اشكال هرمية ، ليسهل انزلاق الثلج عنها ، فلا تتأذى ، بينا نحن سكان المناطق الحارة نصنعها على اشكال مسطحة افقية ، لان الثلج في بعضها قليل محول ، وفي بعضها الاخر معدوم فلا خوف منه عليها .

اما ما نراه في لبنان من سطوح القرميد المسنمة فكله حديث مقتبس عن الاوربيين ، من باب التقليد والمباهاة اكثر مما هو من باب الاضطرار والحاجة .

يلتحق ايضاً بهذا القسم اعتياد الناس في القديم اشياء لم يكن لهم سواها لقوام حياتهم ، وقد الفوها فسهلت عليهم وتحولنا نحن ابناءهم عنها الى ما يفضلها من مستنبطات العصر ، فاصبح من الشاق علينا بل من المحال العود الى ما كان لهم .

كان مثلاً جدودنا في القديم يلبسون الطربوش المغربي والدامر او الكوبران والسراويل الجوخية او الخامية المصبوغة بالنيل ، ويحتم علينا العصر الجديد ارتداء غير هذه الملابس .

وكانوا يسافرون ويتنقلون على ارجلهم او على ظهور الدواب ، اذ لم يكن لهم ما عندنا اليوم من مركبات وسيارات وطرق معبدة مفروشة بالزفت .

وكانوا يستصبحون بانوار القش وزيت الزيتون والشمع ، اذ لم يكن لهم ما جاءتنا به الاختراعات الجديدة من الزيوت النفطية وتناديل اللوكس ثم الكهرباء وما لها من نعم عديدة كادت تجعل ما كان يحلم به مؤلف الف ليلة وليلة حقائق حسية ملموسة . ومن الطبيعي ان ابناء اليوم لن يعودوا الى ما كان عليه جدودهم ، الا اذا وجدوا في مثل حالتهم ، ولذلك قالوا : « للضرورة احكام ! » .

اثر العقائد والآراء في العادات الاجتماعية :

اما تباين العادات والاعمال بتباين العقائد والآراء فمثاله : ان الذين يعتقدون بالتقمص والتناسخ والعود الى الحياة قلما يأبهون للموت . ويقال ان نابليون سعى في نشر هذه العقيدة بين جيشه في حملته على روسية ليحمله على المقاومة واللامبالاة في مجابهة الموت ، وان اعتقاد قدماء المصريين بالخلود هو الذي حملهم على تشييد الاهرام قبورًا لملوكهم ، وعلى استنباط التحنيط الذي حفظ لنا حتى اليوم موميا اتهم وابقى لنا في دفائنهم ، تلك الكنوز الاثرية نموذجاً لما كانوا عليه من رقي وحضارة .

وان فكرة الاقدمين في بقاء الاقوى ودوس كل ضعيف هي التي ادت الى انتشار الاسترقاق والتسخير واستثمار الانسان للانسان ونبذ الفقير والعامل ووأد البنات والتضحية بالاطفال ودفن المرأة حية مع زوجها ، الى غير ذلك مما هو في عادات الاقدمين من هذا الطراز ، وقد قضى عليه ما طرأ على الافكار والآراء على توالي الايام من تطورات جديدة .

العادات المزاجية والاكتسابية :

ما كانت العادات لتحسب مزاجية بالحصر الا من جهة تأثرها بما ركب في المرء من مزاج ، وفطر عليه من طبع وخلق وسليقة ، فان فريقاً من علماء النفس والاطباء والفلاسفة يذهبون الى ان عادات المرء يستمد نوعها وجوهرها مما يتألف منه جسمه من عضلات وغدد واعصاب ، ويجري في شرايينه واوعيته الدموية من كريات حمراء او بيضاء ، تتكيف بها حركاته وعواطفه واعماله . وهذا ما يسمونه المزاج ، وغالباً ما يرث المرء مزاجه عن سلالته ، ولا سيما والديه ابيه وامه ، وبعد ان يبصر النور ينمو فيه ذلك المزاج ويقوى بما يتناوله من غذاء وطعام ويتوافر حوله من اسباب للحركة والقوة ومقومات الحياة ، فاذا ترعرع ظهر فيه ميل خاص واستعداد فطري لهذه العادة او تلك ، ومفعولات هذين الميل والاستعداد هو مما اردنا تسميته بالعادات المزاجية .

ويتمثل العامة من اللبنانيين ، تأييداً لمذهبهم في هذه العادات ، بوالدين احدهما

ابن ملك والآخر ابن غجري من القوم المعروفين عندنا « بالنور » اشتهر امرهم في لبنان ، ضاعا وفي اثناء ضياعهما لاذا بكنف رجل تبناهما واكب على تثقيفهما معاً على نمط واحد ، حتى اذا شبّا تباينت اخلاقهما فظهرت في الاول الصفات الخاصة بالملوك ، من حب الضرب بالسيف ، وركوب الجياد ، وميل الى الكرم والجود ، والسيطرة على الاتراب ، والتحكم فيهم ، والفصل في ما يقع بينهم من منازعات .

اما الآخر ابن الغجري فقد قاده مزاجه الى المهارة في الرقص والغناء وعمل المناخل وسرقة الدجاج ، مما كان يزاوله ابوه وامه من قبله ، وذلك دون ان يتعرف احد منهما الى ذويه او ان يتصل به اي شيء عن اصله وفصله .

وبهذا يقول العامة من اللبنانيين في امثالهم : «الاصل عون — دور الدوره ولو دارت وخذ الاصيله ولو بارت — عليك بالاصيله ولو على الحصيره — الاصل بيعين ولو من جب تين . »

وكثيراً ما تجتهم يتمثلون في هذا المعنى بقصة جرو ذئب اصطاده راع وضمه الى غنمه فحنت عليه شاة وغذته بحليبها ، حتى اذا كبر استيقظت فيه غريزة الشر والشراسة فبقر بطنها وافترسها فقال فيه الراعي :

بقرتَ شويهتي وفجعتَ قلبي وانت لشاتنا ولدٌ ربيب
غُذيتَ بدرّها وربيتَ فينا فمن انباكَ أن اباك ذيبُ
اذا كان الطباعُ طباعَ سوء فلا لبنٌ يفيدُ ولا حليبُ

ومثلهم هذا لا ينطبق تماماً على العادات المزاجية ، لانه بالشكل الذي اوردناه ، يشير الى الغريزة ، والغريزة تفترق عن المزاج بكونها لا تخضع للاعتياد ، والمزاج يخضع له .

اخص الامزجة :

والامزجة في الناس كثيرة تتبدل بتبدل مظاهر هياكلهم الجسدية وانواع بنيتهم واخصها اربعة : الدموي واللمفاوي والعصبي والصفراوي .

فيغلب في الاول التقلب في الرأي ، والتسرع في الحكم ، مع شيء من الصلاح وجودة القلب ..

واكثر ما يكون الثاني خامل الهمة ، قليل التأثر ، يلازم اعماله في الغالب السأم والاهمال .

ويعرف الثالث بالذكاء ، والنشاط ، وسرعة الخاطر ، ودقة الاحساس . واشهر ما يقال في هذا الصنف انه سريع الغضب سريع الرضى .

اما الرابع فينسب اليه حسن الرأي ، والدأب على العمل ، وطول الصبر والاناة . ويقال ان اكثر الذين لمعوا على مسرح الحياة واحصوا بين النوابغ العباقرة كانوا من هذا الصنف .

اهم السلالات :

وتقسم السلالات ايضاً اربعة اقسام :

الاولى البيضاء او القوقاسية وهي تمتاز بجمال الوجه والسحنة ، وسعة الجبين ، وتوازن العينين ، وطول القامة ، ونعومة الشعر ، ورباطة الجأش ، وحدة التصور ، والقابلية للرقي ، وحذق العلوم ، والثبات في الاعمال .

والثانية الصفراء او المنغولية وهي تعرف بصفرة اللون او سمرته ، وبعلو الوجنتين ، وبروز الفك ، وصغر العينين ، وقصر الانف والقامة ، وخفة شعر اللحية . ويغلب فيها التحفظ ، والحيلة ، وصلابة الارادة ، وقساوة القلب ، والبراعة في التقليد .

والثالثة السوداء او الزنجية المتصف اصحابها بسواد البشرة ، وجعودة الشعر ، وكبر الانف ، وغلاظة الشفتين ، وصفرة الوجنتين ، وطول الايدي ، وعرض القدمين . ومن مميزاتها الامانة ، وكمون الحقد ، ومفاجأة من يسيء اليها بانتقام غير منتظر ، وقلة ما فيها من وسائل الرقي والتقدم .

والرابعة الحمراء النحاسية ومنها الهنود الاميركيون وعددهم لا يزيد على عشرة الاف ، يغلب فيهم الحذر ، والنفور السريع ، والصبر العجيب على احتمال المكاره والالام .

دور الفراسة في الاستدلال على الاميال والاخلاق :

ومن الناس من ينزلون الفراسة منزلة الامزجة والسلالات في الاستدلال على الاميال والاخلاق ، وقد وضع بعض العلماء كتباً مطولة في هذا العلم ، تلمع

الى ما تدل عليه الملامح وتقسيم الوجه من الاستعدادات والرغائب

ويسند هؤلاء مذهبهم الى ما جاء في اقوال الحكماء من عبارات ذهبت مذهب المثل منها قولهم : « الوجه مرآة القلب — الظاهر دليل الباطن — العين نافذة النفس — سيماؤهم في وجوههم »

على ان المعول عليه في هذا الموضوع هو ان الظواهر كثيراً ما تخدع . وقد قيل عن داخل المرء انه صندوق مقفل لا مفتاح له الا التجربة . اجل قد تدلّ الملامح على بعض الاميال ، ولكن وراء ذلك العقل والارادة فانهما المحركان الاساسيان للاعمال ، وكل ما يتم بمعزل عنهما هو شيء بارد تافه لا قيمة له ولا شأن في عالم المعنويات .

كيف تكتسب العادات والتقاليد ؟ :

وتكتسب العادات والتقاليد تدريجياً منذ الصغر بان تنتقل عن طريق الحواس الى المخيلة حيث تنطبع بصورها واوضاعها في صفحة الذهن ثم يأتي التكرار فيزيدها مكنة ورسوخاً .

وللاكتساب وجوه كثيرة اخصها « القدوة » وهذه قد تكون حسنة ، فيما اذا كان الموضوع المقتدى به صالحاً مفيداً ، يقود الى عمل الخير ، ومجانبة الشر ، ورعاية الخير والواجب ، وتكون سيئة فيما اذا كان ذلك الموضوع ضاراً رديئاً ، يقود الى الشر ، والحاق الاذى بالناس ، والاستخفاف بالواجب .

ومنها « العشرة ، والبيئة ، والتعامل ، والقراءة » وهذه قد تكون مفيدة وضارة ، ولا يفوت اللبيب كيف ينبغي عليه ان يميّز بين الامرين فيما اذا سعى الى ذلك تحت رقابة العقل ، اكتساباً للعادات الفاضلة والتقاليد الراقية .

ومن وجوه الاكتساب « التربية » باطوارها الثلاثة : البيتية ، والمدرسية ، والاجتماعية ، فانها في جميع ذلك اساس للعادات والتقاليد ، وعامل اولي لترقية المبادىء ، وتهذيب الاخلاق ، وتوسيع المعارف والمعلومات .

اما الاولى فهي بمثابة الركن من البناء ، فان حسنت كانت بشيرة بالهناء ، وان ساءت كانت نذيرة بالبؤس والشقاء ، والولد فيها يكون كالمرآة ينعكس فيه

كل ما يراه ولا سيما من مربيه . والمربون الاولون هم الوالدون ، ولا خلاف في ان للام الاثر الاعظم في التربية البيتية ، لان الولد ينشأ بين يديها ويترعرع في كنفها تحت ناظريها .

وتأتي بعدها التربية المدرسية وفيها يطبق العلم على العمل ، برعاية الاساتذة الذين يحلون محل الوالدين في تثقيف النشء واصلاح ما قد يكون نال تربيته البيتية من مفاسد تخل بجمال الفضيلة ، وتمس بصحة المبادىء وسمو الاخلاق . وقد قالوا : « اولا المربي ما عرفت ربي — واملأوا المدارس تفرغ السجون — والامم التي لها ارقى المدارس هي ارقى الامم . »

وليس للتربية الاجتماعية مربون خصوصيون ولكنها تتم بالمخالطة ، والتعامل ، والتأثر بالمحيط والبيئة ، ويسميها اللبنانيون « مدرسة الدهر » ومن امثالهم في ذلك : « ابنك لا تعلمه ، الدهر يعلمه » . اجل ان الدهر هو المعلم الاكبر لا تكمل لامرىء تربية ولا تأديب الا اذا عاركه ودرس عليه ، لانه ، وهو فرد في مجموع ، مضطر حكماً الى دخول هذه المدرسة ، التي هي العالم ، ومشاركة طلبتها ، وهم الناس على اختلاف طبقاتهم ، في تحصيل شتى المعلومات في كتاب لم تطبعه مطبعة ولم تخطه يد ، وهو كتاب عبر الازمان وطوارق الحدثان .

ركن العادات والتقاليد :

وللعادات والتقاليد ركن تستند اليه في الحكم على ما لها من حسن او رداءة ومن فائدة او ضرر ، وما اشبه هذا الركن بميزان تعاير به العادات والتقاليد وتزاز ليعرف ثقيلها من تافهها ، بل هو المحك الذي تُنتقد به او تُضرب عليه ليظهر صحيحها من زائفها .

ومن الناس من يجعل ركن هذه العادات والتقاليد « الذوق » الذي يميل بداهة الى كل جميل ، ولكن « الذوق » يختلف في الناس اختلافهم في البيئة ، والعافية ، والاحساس ، والتربية ، والمذهب ، فلا يصح اتخاذه سنداً للحكم .

ومنهم من يجعل هذا الركن « حكم الجمهور » وهو زعم باطل لان هذا اي « حكم الجمهور » لا يسهل التوصل الى معرفته ، واذا سهل فقد يضل

كحكم الفرد ، وفضلا عن ذلك ، فان حكم جمهور في استحسان شيء لا يمكن ان يكون علة لحسنه ، بل هو معلوله والمعلول لا يصح ان يكون ركناً .

والقول السديد في هذا الشأن هو ان « الواجب الادبي » قد جعل بكثير من الصواب اصح ركن للعادات والتقاليد ، لانه في الكون ذلك النظام السرمدي الشامل المعقول الذي يأمر بالخير والمعروف ، وينهى عن الشر والمنكر ، بل هو ذلك الوازع الداخلي الذي يزن القيم بميزان العدل ، ويدعو الى الصلاح والفضيلة ، عملاً بناموس محفور على حنايا الصدور ، لا يقوى احد على محو حرف من حروفه ، ولا على تعديل اية كلمة من سلك كلماته .

فعلى كل امة ان تستند الى هذا « الركن» المكين في الحكم على عاداتها وتقاليدها ، لتنزهها عن الشوائب والمعائب ، وتبعدها عن الاسفاف والسخف والخرافة والبدعة ، وتجعلها الخامة متدفقة بعطر الاخاء والمحبة والعدالة ، وهي العوامل التي يشيد عليها صرح الاخلاق ،ويرقي المحيط ،ويتسع المجال للاستفادة من ذخائر الكون ومكنوناته .

تطور العادات والتقاليد :

ومن لاحظ العادات والتقاليد في سياق الاجيال ، رآها خاضعة لسنة التطور والتبدل ، تبعاً لمقتضيات العصور والحوادث .

فمنها ما ينحط من ذاته ويضعف تدريجاً الى ان يزول ويحل غيره محله .

ومنها ما تطغى عليه ظروف قاهرة ، تضطر المجتمع الى تركه ، واكثر ما يقع ذلك في الجلاءات والهاجرات اثر الحروب ، والثورات والجوائح الطبيعية، التي لا تقوى يد الانسان على صدها او تخفيف تبعاتها .

ومن ثم يكتسب من تكون تلك حالهم عادات وتقاليد جديدة تكون طوراً لخيرهم ، وتارة لضررهم ، واكثر ما يكون التطور الضار ، فيما اذا جاء عن طريق مستعمر ، يحاول استعباد البلاد بمحو عاداتها وتقاليدها ، واحلال غيرها محلها .

ففي مثل هذه الحال يتحتم على الشعب المستضعف ، الذي يحاول الاقوياء التهامه بمثل هذه الذرائع ، ان يستمسك بعاداته وتقاليده ، لتظل دعامة لكيانه ، واساساً لاستقلاله وسلطانه .

ان التطور في العادات والتقاليد امر لا بدَّ منه ، ولكن الفطنة توجب علينا بالاّ نتسامح بوقوعه الا بتؤدة وحذر مع المراعاة لظروف الزمان والمكان والمحيط ، وما يترتب على التسامح به من نتائج وتبعات .

ان تبديل العادات صعب لكنه ليس بالمستحيل ، فيما اذا استهدف بقوة ارادة وطول اناة ، وكان ما يدور حوله على تلاؤم مع الحضارة الناشئة ، وملابسات المعيشة ، والنهضة التقدمية والعلمية .

دور الزعامة في تطور العادات والتقاليد :

وقد كان للزعامة دورها المؤثر في تطور العادات والتقاليد ، فهي التي بنفوذها تساعد على تنقيتها من الشوائب ، ووضعها في شكل موافق لخير الجمهور ، هذا فيما اذا كانت منزّهة القصد ، ذات رأي حقيق بالاتباع ، وكان القائمون بها ممن لهم كلمة نافذة ، ورغبة محضة للخير ، وقد عرفوا بالوجدان الصحيح ، والضمير الحي والعقل الراجح ، واتصفوا بالرصانة والحكمة وحسن البصر في الامور ، واهتموا بوقف زعامتهم على خدمة الوطن ونشر افضل ما تنتجه الحضارة العالمية بين ابنائه .

والزعامة اللبنانية الموروثة في خدمة العادات والتقاليد تاريخ حسن ، حافل بذكريات ومآثر كثيرة ، قام بها زعماؤنا في الامس ، اصلاحاً لبعض ما كان يعتور عاداتنا وتقاليدنا من شوائب ومساوئ .

وها نحن نذكر من ذلك على سبيل المثال : —

اولاً : ما أمر به الامير بشير الكبير عند وفاة اخيه الامير حسن من ترك بعض العادات المأتمية الكثيرة التكاليف ، التي كانت دارجة في جنازات الكبراء ، والاعتياض عنها بما هو اسهل منالاً واقل كلفةً وعناء

ثانياً : ما فعله المطران طوبيا عون مطران ابرشية بيروت ، من سنة

١٨٤٤ الى ١٨٧٠ ... على نساء ... في اثناء دورة ... قام بها سنة ١٨٤٧ ، ان يتركن لباس الرأس المعروف بالطنطور ، تخفيفاً لما كان يسببه لهن من ازعاج ولازواجهن من نفقات .

جمعية لاصلاح العادات والتقاليد :

ولقد تضاءلت الزعامة اليوم وتبدل حالها ولم يبقَ لها مثل نفوذها من قبل، ليرجى منها الاهتمام باصلاح ما اختل من تقاليدنا وعاداتنا ، فيخلق بنا والحال ما ذكر ان نعنى بتأليف جمعية ينخرط في سلكها نخبة من مفكري الطوائف واصحاب الشأن تسدّ مسدّ الزعامة المستضعفة المتوارية ، في درس تلك العادات والتقاليد ، والاشارة باستبقاء ما يحسن منها ، والاعراض عما يقبح وذلك بقرارات تتخذها بالاكثرية ، بعد مناقشات قانونية ، وتستعين بالحكومة ورجال الدين على انفاذها ، لان هذين المرجعين هما الآن اكثر هيئات البلاد وزعاماتها استطالة وقوة .

وليكن من اهداف هذه الجمعية ايضاً تقريب العادات والتقاليد بعضها من بعض ، فيجعل مثلاً نظام واحد عند جميع الطوائف ، للاجتماعات الميلية ، وتقاليد الولادات ، وحفلات التنصير ، والتطهير ، والخطبة ، والاعراس ، والمآتم ، وينتقى زيٌ واحدٌ للبس تجمع عليه كل الطوائف ، فلا نظل نحمل في الشارع ما يدل على عنعناتنا المذهبية ، ونفتح قاعات بيوتنا لاستقبال الاصحاب من اي طائفة كانوا ، فان ذلك مما يشدّ بيننا اواصر الاخاء والتفاهم ، ويعود على مجموعنا ومدنيتنا بما يجمع الشمل ويوحد الاهداف والمنازع .

توحيد العادات والتقاليد :

اما ترى كيف ان عاداتنا وتقاليدنا ما زالت حتى اليوم فوضى ، تختلف باختلاف الدرجات والمناطق والمذاهب، مما يحمل الغريب على النظر الينا بلاحظة الدهش، والظن بان بلادنا مسرح تمثل عليه نموذجات لمختلف الاجناس والقوميات؟

نجد هاهنا فئة تعيش بيننا على اساليب محض اوربية ، في اطعمتها وملابسها ومعاملاتها وطرائق تفكيرها .

وهنالك فئة اخرى نصف اوربية ونصف لبنانية ، يريد بعضها الاولات من عاداته وتقاليده العريقة في القدم ، ولكن بعضها الآخر يمسك بتلابيبها ويؤخر سيرها ويلجئها الى البقاء على حالها الى ما لا يعلمه الا الله .

وهنالك فئة ثالثة ما زالت تعيش كما كان يعيش جدودنا من مئتي عام ، لا يريدون عما هم فيه تحولاً ، ولا يرضون عن اساليبهم العتيقة بديلاً .

ومما يؤسف له ان هذه الحالة كادت تؤدي الى انقطاع الصلات الوطنية ، بين هذه الفئات ، لانها بينا اجتازت احداها مراحل بعيدة في مضمار الحضارة والرقي ، وقفت الاخرى جامدة حيث كانت ، وهو مما يباعد بين ابناء الوطن الواحد ، بل يكاد يفرقهم ايدي سبا .

فاذا رُبطت هذه العادات والتقاليد بعضها ببعض ، زادنا ربطها وحدة وقوة ، ولا يخفى ان التباين في عادات البشر يبعث بهم على الجفاء والمقاطعة والمدابرة ، وان التماثل والتشابه فيها يهيب بهم الى المؤانسة والممازجة في العواطف ، والاتحاد في القلوب والرغائب ، فالمرء من طبعه ينفر ممن يخالفه في مظاهره ، ويرغب في موالاة من يشابهه فيها ، ويوافقه عليها ، وبقدر ازدياد المشابهة بين فريقين يزداد الولاء بينهما استحكاماً ، وبقدر ازدياد المخالفة تزداد النفرة استفحالاً .

ترى الى مَ يبقى هذا التباين باللباس في اسواقنا واجتماعاتنا — الغنباز الى جانب ، والسراويل الاوربية الى جانب آخر — القبعة الاوربية من جهة ، والعقال والكوفية من جهة اخرى .

اجل ليس ما يمنع ان تكون للبنانيين عامة مظاهر واحدة في اللباس يتمشون عليها جميعاً ، طالما ليس في هذا التوحيد ما يخالف العقائد المذهبية ، وانما هو تقليد اجتماعي وضع اكثره اولياء الامر ، منذ القديم ، وكانوا يميزون فيه بعض الطوائف على بعض ، ليقيموا بينها الفواصل والفوارق ، زيادة في تباعدها وتخاذلها ، ولئلا تتحد ضدهم ، وتقوى عليهم ، فكان مثلاً بعض الحكام يأمرون بان يلبس ابناء المذهب الفلاني غير ما يلبسه ابناء المذهب

الاخر ، وذلك لما عرفوه من ان التفريق بين ابناء [illegible]ـية في البلاد يباعد بين قلوبهم ، راجين استغلال ذلك فيما هو من مصلحتهم الخاصة ، لا من مصلحة سواهم .

تلقين العادات والتقاليد الحسنة في المدارس :

وهناك طريقة اخرى لاصلاح العادات والتقاليد ، هي ان يُلقنها النشء في المدارس ، ويؤدي عنها امتحاناً ، وذلك يستدعي وضع كتب مدرسية لمختلف درجات التعليم ، يبحث فيه الموضوع على شكل جديد ، يوافق روح المجتمع العالمي العصري ويلائم نزعتنا الشرقية وبيئتنا اللبنانية ويتناسب من الوجهة الاجتماعية مع مقدسات كل طائفة ، فيقترب اللبنانيون بذلك بعضهم من بعض وتتشابه احوالهم وتتمازج عوائدهم ويصبحون امة موحدة المشارب ، والاذواق ، والمناحي ، تجمعها طرّاً تلك السمة اللبنانية العزيزة ، التي نمتاز بها ونحملها بفخر ، ونبذل النفس والنفيس للحفاظ عليها .